الجريحة الابدية

قطرةُ الندى العالقة بغصن الشجرة ، عند ما تنعكسُ عليها أشعةُ الشمس المشرقة تكون أشبه شيء باللؤلؤة الصافية

تلك القطرةُ اللؤلؤية ، اذا هبَّ عليها النسيم الخدَّاع فأسقطها الى الحضيض ، امتزجت بالتراب ، فتحوَّلت الى وحل

ولكن يكفي ان يُصيبها شعاعٌ من الشمس المنعشة ، حتى يُبخّرها فيطهّرها مما لحق بها من الاقذار ، ويعيدها الى صفائها الاول . . .

كذلك قل عن المرأة الطاهرة . فان قلبها هو أشبهُ شيءٍ بتلك اللؤلؤة الجميلة قبل سقوطها من على الغصن ، بل هو أبهى وأسنى

فاذا هبَّت عليهِ لوافح الشهوات والاهواء ، أسقطتهُ الى وهدة الرذائل ، فرَّغتهُ في حمأة الدنايا

ولكن يكفيهِ شعاعٌ من الحب الطاهر حتى يخلصهُ من كل شائبة ويعيده الى ما كان عليهِ من الجمال والبهاء

* * *

مسكينة المرأة ، وتعِس حظّها في هذه الحيـاة . نفحتها قريحة الشعراء بألطف الأسماء ، وجادت عليها مخيّلة العشاق بأجمل الالقاب :

سموها الشمس والقمر ، وهي المسكينة المظلمة الفؤاد

رأوا فيها الغزال الشارد ، وهي الرازحة المثقلة بتقاليد هذه الحياة

شبهوها بالزهرة النضرة ، وهي المهشمة القلب الدامعة العينين في بلائها الشديد

لقّبوها بالحمامة البيضاء السابحة في الفضاء ، وهي العصفور المقصوص الجناحين في قفص الحديد

صوَرٌ وتشابيه ، وأسماء وألقاب ، هيهات ان تنطبق على حقيقة الواقع وواقع الحال . وليس من اسم ينطبق على هذا المسمى المسكين أحسن من الاسم الذي وضعهُ « ميشله » المؤرّخ الفرنسوي الشهير لما سمى المرأة « الجريحة الابدية » . كيف لا وهي جريحة ابنةً وزوجةً وأماً . . . ؟

بل كلها جروح دامية اذا تناولها اعصار هذه الحياة فتلاعب بها كما يتلاعب باوراق الخريف ، وطرحها أخيراً في مواخير البغاء ، فتصبح ثغراً ضحوكاً باسماً ، وقلباً خفوقاً دامياً ؛ تغازل بالعين ، وتبكي بالأخرى ؛ وتداعب باليد ، وباليد الثانية تسند فؤاداً تُصدّعهُ الذكرى

* * *

جمع أحد مشاهير المصوّرين حياة احدى هذه التعيسات في خمسة رسوم بديعة الوضع والصنع . ففي الاول : صورة فتاة طاهرة ساذجة عند وصولها من قريتها الى المدينة ؛ وفي الثاني : وقوعها بين مخالب أحد الذئاب البشرية ؛ وفي الثالث : نزولها الى بيوت الفحشاء ؛ وفي الرابع : نزولها في السجن ، لأن الفاقة ساقتها الى السرقة ؛ وفي الخامس : امرأة ناحلة جرداء ، عليها أسمال بالية ، وهي تمدُّ يدَها الى المارّين تستعطيهم هاتفةً : « أعطوني حفظ الله ابناءكم من بناتي . . ! »

* * *

هذه هي صورة اكثر النساء اللواتي وُصمنَ بوصمة العار وهي صورة غنية عن الشرح والتعليق . ولكنّ هناك فرضاً واجباً يتحتم علينا قضاؤه . فقلب هذه المرأة المسكينة كان ضحية الهيأة الاجتماعية . فعلى الهيأة الاجتماعية أن تضمد جرحه ، وهي أدمتهُ ؛ وتداوي قرحه ، وهي أحدثتهُ . فتسكب عليهِ بلسماً ، لا خلاً يزيده ألماً

قال فيكتور هوغو : « أيها الرجل — وكلنا هذا الرجل — لا تحتقر أبداً امرأة سقطت ، لأنك لا تعرف تحت أي حمل ثقيل رزحت نفسها المسكينة »

أجل لا يليق بالانسان أن يزدري تلك المخلوقة التي أعيتها أثقال هذه الحياة فسقطت الى الحضيض ، بل يجب عليهِ ان يمدَّ اليها يداً كريمة فينتشلها من سقطتها ويرفعها من كبوتها

* * *

في فرنسا جمعية يرئسُها الموسيو ليون بورجوا الوزير الفرنساوي السابق ، هي أفضل من الجمعيات الخيرية ، وأسمى غاية وأنبل مقصداً من سائر الاعمال المعروفة بالأعمال الانسانية ؛ خصص أعضاؤها ذواتهم بزيارة تلك المنازل النتنة التي دُفنت فيها الانفس الحية فصارت تشبهُ القبور المكلَّسة : ظاهرها الرونق والبهاء ، وداخلها التعاسة والشقاء . يزورون تلك الخبايا المظلمة ، فيزورها معهم شعاع الحياة والرجاء فينعش الافئدة الذابلة ويحيي القلوب الماتة . يزورون تلك المنازل فيأخذون من طُرح فيها من سفالة البشرية ، ويضعونهُ في كير التنشيط ويدفونهُ من نار الامل ، فتُطهره ويصوغون منهُ نفساً جديدة طاهرة لا عيب فيها ولا دنس

* * *

ونحن في حاجة ماسة الى مثل هذه الجمعية التي تخدم البلاد أجلّ خدمة فتعلّم السعيدات ما هي الشفقة والرحمة ، وتعلّم التعيسات ما هو الصبر والرجاء

﴿ أقوال مأثورة ﴾

* كن على حذر من الكريم اذا هوَّنتهُ . ومن الاحمق اذا مازحتهُ . ومن العاقل اذا أغضبتهُ . ومن الصديق اذا أفشيت بسرّه　　(ابن عبد ربهِ)

* قال بعضهم : انظر الى المتصح فان أتاك بما لا ينفعك ويضرُّ غيرك فانهُ شرّير . وان أتاك بما ينفعك ويضرُّ غيرك فانهُ طامع . وان أتاك بما ينفعك ولا يضرُّ غيرك . فاصغَ اليه وعوّل عليهِ　　(الراغب الاصفهاني)

روسيا و بنو رومانوف

سبق للزهور أن نشرت صورة الشيخ يوسف الخازن صاحب « الاخبار » المحتجبة . وهو الكاتب المجيد الذي طالما طرب القراء لمقالاته الشائقة وابحاثه الدقيقة . ويسر ان تقدم اليوم لقرائنا المقالة التالية منه ، قال :

في أوائل الشهر الماضي خُتِم القرن الثالث لجلوس مخائيل رومانوف على عرش روسيا ، وهو جَدُّ الدولة المالكة فيها اليوم ، فاحتفل الروسُ بذلك احتفالاً باهراً توفّرت فيه مظاهرُ الأُبهة والعظمة على ما يليق بالدولة التي تظلّلُ رايتها سدس بلاد الله مساحةً وعُشر عباده عدداً . فحجَّ القيصر الى بيت جدهِ في موسكو ، حيث يُحفَظُ المهد الذي ضمَّهُ واللعَب التي لها بها وسائر الذخائر المتروكة عنهُ ، مما يحفظهُ الابناء برًّا بالاباء وافتخاراً بهم ؛ واقيمت الصلوات الحافلة في عاصمة روسيا تذكاراً للاموات ودعاء للاحياء ، بحضرة ستة عشر مطراناً يتقدَّمهم بطريرك انطاكية ، وقد جيء به خصيصاً من الديار الشامية لهذه الغاية ؛ ووزّعت الصدقاتُ وأطلق السجناء وعفي عن كثيرين من المنفيين ، ووردت على القيصر التهانئ من الملوكِ ورؤساء الحكومات وذوي الحيثيات ، على ما فصَّلت ذلك الجرائد اليومية

ولا غرابة اذا احتفلت روسيا مثل هذا الاحتفال بذكرى مخائيل رومانوف فان لابنائهِ فضلاً عظيماً عليهـا ، ومآثر عديدة تخلّدُ ذكرى كثيرين منهم في التاريخ وتسوّغ الافتخار بهم : فانهم تولّوا روسيا ، ومساحتها ثمانية ملايين كيلومتر مربع بما فيها سبيريا ؛ والبحران البلطيق والأسود مقفلان في وجهها ، فلا منفذ لها الاّ على البحر الأبيض حيث الجليد يكاد يجعل كلّ منفذ والهواء سواء ؛ واسوج على كتفها قوية الساعد شديدة البأس ، تضطرها الى التنازل لها عن بعض الولايات ؛ وبولندا حاجز قويٌّ بينها وبين دول الغرب تعزلها عنها ، ولا تدع لها رأياً في مجالسهنّ ؛

وفتوحات الترك تقصر نصيبها من ارث السلطنة الرومانية الشرقية على لقب وشعار[1]؛ والعنصر السلافي ، بوجه الاجمال ، ضعيف الشأن ، خامل الذكر لا يُعبأ بهِ ، ولا يكترث له

وها هي الآن بعد ثلاث مئة سنة من حكمهم على ما ترى : فانهم ما اكتفوا بالمحافظة على ما ورثوه واسترداد ما اضطرّتهم الأحوال الى التنازل عنهُ في بداية ملكهم ، بل زادوه كثيراً بما ضموا اليهِ من الأملاك الواسعة في اوربا وآسيا واميركا . على انهم عادوا فباعوا ولايتهم الاميركيـة للولايات المتحدة ، كما باعت فرنسا من قبل ولاية لويزيانا ، ومع ذلك فمساحة روسيا الآن تناهز ثلاثة أضعاف ما كانت عليهِ في أوائل القرن السابع عشر ، عدا الامارات المستظلة بظلها والمناطق الداخلة في نفوذهـا . ومما يزيد هذه المساحة قيمةً كونُهـا قطعةً واحدة من الغرب الى الشرق . فان روسيا ، من هذا القبيل ، لا يضارعها سوى الصين والولايات المتحدة . أما الصين فانحطاطها لم يدع لها شأناً بين الدول ولسنا نظن أن مستقبلها يكون خيراً من ماضيها اذا اقتصرت عوامل الاصلاح على تغيير هيئة الحكومة ونظاماتها فان مثل هذا التغيير ما كان يوماً دواءً شافياً لأمراض الضعف والانحطاط . وكفى بمصير البلاد العثمانية اليوم شاهداً . واما الولايات المتحدة فمساحتها تسعة ملايين كيلومتر حال كون مساحة روسيا اثنين وعشرين مليوناً . نعم ان للولايات المتحدة مزية عظيمة على روسيا بالنظر الى الموقع الجغرافي ووحدة الأمة وقابلية البلاد للعمران ولكن ما دامت دفة السياسة في يد أهل القارة القديمة فشأن روسيا أعظم وأرجح

اما البحر الأسود فقد أصبح بحيرة روسية لا ينازعها فيهِ منازع بفضل كاترين التي بسطت يدها على ساحله ، وبطرس الذي دافع عنهُ دفاع الجبابرة ، واسكندر

(١) لقب « قيصر » وشعار « النسر المزدوج الرأس » الذي اتصل بالروس بمصاهرتهم لبني بليولوج أصحاب القسطنطينية

الذي فك القيود وحل العقود وجدد فيهِ المعاقل والحصون رغم الانوف . وما قيل عن البحر الأسود يقال عن البحر البلطيقي وقد قامت عاصمة الروس على ساحلهِ تفاخر رصيفتها الأسوجية فتفخرها على حداثة عهدها وترسل اليهـا مع كل موجة ذكرى بطرس الاكبر قاهر كرلوس الثاني عشر ومؤسس عظمة الدولة السلافية على انقاض الدولة السكندينافية

اما بولندا فقد امّحت من سجل الدول وكاد الانتصار لها لا يتعدّى حركات كحركة المسيو فلوكه الصائح في وجه الامبراطور اسكندر الثـاني على سبيل الاحتجاج عند زيارتهِ باريس: « لتحيَ بولندا يا مسيو ! » على ان فلوكه هذا هو نفسه الذي تغدى فيما بعد على مائدة الامبراطور نقولا الثاني في بطرس برج ناسياً بولندا والبولنديين . لكن كيف كانت الحال فالأولى بالاحتجاج أن يوجّه الى النمسا لأنهُ اذا كان اغتصاب الروس لبولندا يثم على الطمع فاغتصاب الساسة النمسويين لها لا يثم عن الطمع فقط بل عن قلة الوفاء ونكران الجميل ايضاً فانهُ لا يخفى على أحد انهُ لولا بولندا لباتت فيانا مرتعاً لخيل الترك ونالها منهم ما نال غيرها من العواصم التي فتحوها ، ولا يزال النمسويون يحفظون حتى اليوم في بعض متاحفهم جمجمة يزعمون انها جمجمة قره مصطفى وهو الوزير الذي وقف عند اسوار فيانا يتهدد النمسويين ويتوعدهم بقطع رؤوسهم والتمثيل بهم وكاد ينفذ وعيده لولا المعونة التي جاءتهم من بولندا . وقد اكبر النصارى كلهم يومئذٍ عمل البولنديين وتغنّوا بهِ في كل مكان وكلَّف البابا نقّاشاً من خيرة النقاشين ان يخلد ذكراه على الرخام ويزيّن بهِ كنيسة ماري بطرس في رومية . اما الترك فقد حقدوا على بولندا من أجل ذلك فكانوا أول من فكّر في تقسيمها واقترحوه على روسيا قبل ان يخطر ذلك ببالهـا ولم تقدم عليهِ الاّ فيما بعد بالحاح النمسا وبروسيا

اما الهواجس التي جاءت من جانب الترك فمـا لبثت حتى زالت وتلاشت ولم

يبقَ لها أثر في الصدور . نعم ان الترك أخرجوا بطرس الاكبر يوماً فاضطر الى توقيع معاهدة بروت على شروط لا ترضيهِ ولكن خلفاءه انتقموا له أيما انتقام : وهذه معاهدة قينارجه — وقد أبت كاترين أن يوقعها الروس الاَّ في مثل اليوم الذي وقعت فيهِ معاهدة بروت — ومعاهدة ادرنة ومعاهدة سان ستفانو كلها تشهد بأن نجم بني رومانوف كان أعلى من نجم بني عثمان وتبين الاسباب التي جعلت كلمة روسيا في الاستانة فوق كل كلمة

اما العنصر السلافي فقد كان ارتقاء روسيا وصعود نجمها في العالم السياسي خير منشط لهُ فدبت فيهِ روح جديدة وأخذ أبناء السلاف في كل مكان يحولون أنظارهم اليها ويسعون الى الاستظلال بظلها وأثبتت الأيام انهُ لا تقوم لهم قائمة الاَّ بالانضمام اليها والاتحاد معها وان من خالف ذلك منهم عاد بصفقة المغبون . وما كان بنيامين السلاف[1] ليقف وقفتهُ اليوم ويخاطب النمسا ومن يشد مشدَّها بلهجة تحجم عنها الدول الكبرى لولا ان روسيا من ورائهِ تثبت عزمه وتشدّ أزره ، وبيض القطا بحضنهُ الأجدلُ

والحق ان روسيا قد فعلت في سبيل ابناء جنسها ما لم يفعلهُ غيرها في القرون الحديثة وربما كان السبب في ذلك ان ابناء جنسها اكثر حاجة من سواهم الى المساعدة والتعضيد . ولم تنحصر عناية الروس بابناء السلاف فقط بل تناولت جميع الذين على مذهب الارثوذكسية ايضاً فكان لليونان والسوريين حظ وافر منها والمشهور انهُ لولا الروس ما قُرِع جرس في سوريا ولا ارتفع صليب في جنازة مسيحية ولذلك كنت ترى المسيحيين العثمانيين بوجه الاجمال ضالعين مع روسيا في حربها مع اليابان ولم يخرج عن هذه القاعدة سوى نفر من تلاميذ المدارس الاميركية لم تبلغهم عبر الماضي او ظنوا ان الانتصار لدولة غير مسيحية على دولة مسيحية يعد دليلاً على

(١) الجبل الاسود

الارتقاء وسعة الحلم والتنزه عن التعصب

* * *

على أن الارتقاء الاجتماعي في عهد بني رومانوف لم يبلغ في روسيا شأوَ الارتقاء السياسي وربما كان السبب الاكبر في ذلك ان الارتقاء السياسي يكفي للقيام بهِ أفراد معدودون تتوفر لهم الاسباب اللازمة وجلها مادية وذلك ميسور في كل آن حال كون الارتقاء الاجتماعي لا بدَّ له من ارتقاء الأمة نفسها وهو أبعد منالاً لأنهُ موقوف على عوامل لا يمكن الاستغناء عنها وجلها معنوية ومرهون بأوقات معينة قلما يمكن تعجيلها بلا ضرر . لذلك اذا صحَّ أن ينسب فضل الارتقاء السياسي الى بني رومانوف لا يصح أن ينسب اليهم التأخر الاجتماعي . ومع ذلك فقد اخذت روسيا تخطو خطوات واسعة في ترقية الشؤون الاجتماعية نظرياً وعملياً

* * *

هذا ما صارت اليهِ روسيا في عهد اربعة عشر قيصراً وأربع قيصرات تولوهـا مدة ثلاث مئة سنة وقل منهم من لم يترك مأثرة يعرف بهـا في التاريخ : فخائيل رومانوف منظم الشؤون الداخلية ، وألكسيس ضابط القوانين ومنقح الكتب المقدسة ، وفيودور ممهد سبل الاتفاق برفع أسباب النزاع والشحناء بين الأعيان والأمراء ، وبطرس الاكبر مؤسس روسيا الحديثة ، وكاترين الاولى منقذة زوجها وجيشه برباطة جأشها وحسن فطنتها ، واليصابات ماحية عقوبة الاعدام اجابة لنداء المروءة ، وكاترين الثانية الملقبة بسميراميس الشمال ، واسكندر الاول صديق نابليون وخصمهُ ، ونقولا الاول امين الملوك على حقوقهم الالهية ، واسكندر الثاني محرر الفلاح ، واسكندر الثالث حليف فرنسا

على اننا اذا رجعنا الى التاريخ نجد أن العائلة المالكة اليوم في روسيا ليست من بني رومانوف حقيقة ولا يربطها بها الاّ رابطة الرحم فقط فانها من سلالة بطرس

الثالث وهو امير الماني ارتقى عرش روسيا بعهد من حالته القيصرة اليصابات وقد انقرضت بها دولة رومانوف في روسيا كما انقرضت بسميتها دولة ثيودور في انكلترا ، وكاترين نفسها ليست من بني رومانوف ولا هي رومانوف ولا هي روسية مطلقاً

فالعائلة المالكة في روسيا من هذا القبيل كالعائلة المالكة في النمسا فانها تنسب الى بني هبسبورج مع انها ليست منهم الاَّ من جانب النساء فان جدها الامبراطور فرنسيس الاول من بيت لورين ولكنهُ تزوج ماريا تيريزا ابنة الامبراطور كرلوس السادس آخر بني هبسبورج وبواسطتها اتصل الملك بزوجها واولاده منها ولكنهم ظلوا ينتسبون الى عائلة امهم . فروسيا والحالة هذه من جملة الممالك التي تحكمها دولة المانية كأنكلترا وبلغاريا ورومانيا

ويتصل نسب بني رومانوف من جانب النساء ايضاً ببني روريك وهم الدولة التي تولّت روسيا منذ أواسط القرن التاسع للميلاد وقد أدركوا في عصرهم شأناً عظيماً وصاهروا بني بليولوج أصحاب الاستانة وبني كابه أصحاب فرنسا . ومن النوادر التي تذكر عن مصاهرتهم لملوك فرنسا ان بسببهـا سمي ابن هنري الأول ملك فرنسا فيليب : وذلك ان امرأة هنري الأول كانت من بني روريك وكانت تتصل ببني بليولوج من جانب النساء وهم يزعمون انهم من سلالة فيليب المقدوني فسمت ابنها فيليب احياء لاسم أبي الاسكندر جدها المزعوم

ومما يجدر ذكره ايضاً عن بني رومانوف في هـذا الباب انهُ بينما كانت معظم الدول الاوروبية تتهافت على نابليون الأول لتزوجه بنتاً من بناتها بعد تطليقه جوزفين أبى بنو رومانوف ان يصاهروه . نعم ان نابليون لم يطلب مصاهرتهم صريحاً ولكن بدا من سفيرهِ في بطرس برج ما يدل على رغبـة مولاه في اخت اسكندر الأول فبادرت والدتها وزوجتهـا زوجاً آخر حتى تسد السبيل في وجه نابليون . ولا يبعد إن يكون ذلك من الاسباب التي زادتهُ حنقاً على روسيا

ومن عادة بني رومانوف انهم يشترطون بقـاء بناتهم على المذهب الارثوذكسي اذا تزوجنَ بغير ارثوذكسي ويشترطون عند زواجهم بغير ارثوذكسية لن تدخل زوجتهم في المذهب الارثوذكسي اولاً وهي عادة تدل – بقطع النظر عن العقيدة – على رفعة الأخلاق وكرامة النفس فان الدين كالعرض لا يتاجر بهِ

يوسف الخازن

المرء ودنياه

عرف القراء اننا نرمي في ما ننشره لكتاب مختلفين من اصقاع مختلفة الى جعل هذه المجلة مرآة تتجلى فيها حالة اللغة والافكار في جميع الامصار العربية . وفي المقالة الآتية التي جاءتنا من دار السلام وفي ما نشرناه قبلها لكتاب الزهور في العراق ما يصح أن يكون نموذجاً للاسلوب الانشائي والحركة الفكرية في تلك الربوع التي عاشت اللغة العربية فيها عصرها الذهبي :

حيـاة المرء في دنياهُ ركبٌ يجوب الارضَ في طولٍ وعرضِ
فتغويرٌ لهُ في أرض قومٍ وتعريسٌ له في غير أرضِ
وأيام الشهور هي المطـايا تحثُ السيرَ بعضٌ إثرَ بعضِ
وما عيشُ الفتى الاّ غرورٌ كظل زائلٍ او خفق ومضِ

يعيش ابن آدم في الدنيا وهو مغرور بزهوها ، وزهرتها . مشبوب الفؤاد بحبها ، طائر القلب اليها ، مشغول الخاطر بقطعها ووصالها ؛ يطلب منها الوفآء وهي تغدر بهِ ويتوسل الى قربهـا بكل وسيلة وهي تخدعهُ ، وتمنّيه بالوعد . « وما مواعيدها الاّ الاباطيل » !

ولو علم الانسان – أن الدنيا غادة عطبول ، وعاشق ملول . ان وصلت قطعت ، وان اعطت منعت . نعيمها بؤس ، وحلوها مرّ ، وراحتها تعب ، وبقاؤها فناء ، وعمارها خراب ، واهلها في خطر منها – ما ركن اليها بكله ، وما سعى لهـا كلّ